نداءات سورة التحريم

سورة التحريم

مدنية آياتُها اثنتا عشر آية .

محور السورة: هذه السورة تعرض في صدرها الحياة البيتية [١] لرسول الله ﷺ.

أمهات المؤمنين خيرة نساء الأمة طهرًا ومكانة وتقوى، وقد صحبن النبي الكريم ﷺ وعاونه على أداء رسالته وارتفعن إلى ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وقد آخذهن الله بأمرين معروفين في السيرة:

الأول: اتفاقهن على مطالبة النبي ﷺ بالمزيد من النفقة، وضيقهن بالمعيشة التي التزمها، وقد رضين جميعًا بالبقاء معه عند ما أكد لهن أنه لابد من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة.

الثاني: أن النبي ﷺ كان لطيف العشرة لين الجانب دميث الخلق فأطمع ذلك بعض نسائه في الجراءة عليه وكانت السبب الغيرة، وغضب الرسول ﷺ لما وقع، وهجر نساءه جميعًا حتى شاع أنه طلقهن، ونزلت سورة التحريم تعالج هذا الأمر وتؤدب من أحرج الرسول وأساء المسلك [٢].

ولعل ما ختمت به السورة يشير إلى ذلك، إن امرأة نوح وامرأة لوط لم يساعدا رجالهما في إبلاغ الدعوة، بل كانتا عونًا لأعداء الله والخيانة المذكورة في السورة هي خيانة الدعوة.

والمسئولية الشخصية أساس الحساب في الإسلام فلا يغني والد عن ولد ولا زوج عن زوجة، وسيدخل فرعون النار وتفوز امرأته بالجنة لا يمسها من عمله شيء.

وبين أوائل السورة وخواتيمها ندائين للذين آمنوا:

الأول: طلب الله من أرباب الأمر أن يراقبوا بيوتهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا

---

(١) الإنسان الوحيد في التاريخ الذي يصلح أن يكون قدوة لجميع الفئات وجميع ذوي المواهب وجميع الناس هو محمد ﷺ.

(٢) التفسير الموضوعي للشيخ الغزالي.

أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

الثاني: بين - جل شأنه - أنه لا يكلف الناس العصمة فلا يخطئوا أبدًا، بل أمرهم إذا أخطأوا أن يتوبوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ..﴾ [التحريم: ٨].

* * *

النداء الأول

طلب الله من أرباب البيوت أن يراقبوا بيوتهم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

صلة النص بما قبله :

لما وعظ نساء الرسول ﷺ موعظة خاصة أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين، فقال - تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ والمعنى: فمن مَنَّ الله عليه بالإيمان عليهم أن يقوموا بلوازمه وشروطه بوقاية الأهل والأولاد: بتأديبهم وتعليمهم. ووقاية النفس: بإلزامها ما أمر الله به من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه أولاً وفيمن تحت ولايته وتصرفه ثانيًا.

﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾: وصف النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، كما قال - سبحانه -: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ .

﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾: أي: طباعهم غليظة نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله.

﴿ شِدَادٌ ﴾ تركيبهم يُفزعون بأصواتهم ويزعجون بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، وينفذون أمر الله فيهم﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وهذا فيه مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله وطاعتهم له في كل ما أمر به.

كيف يقي المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار؟

إن الإسلام دين أسرة وواجب المؤمن أن يتجه أول ما يتجه إلى بيته وأسرته قبل أن يذهب بدعوته بعيدًا، وينبغي لمن يريد بناء أسرة مسلمة أن يبحث أولاً عن الزوجة المسلمة، ذلك لأن المرأة ركن ركين في تكوين الأسرة، ومن رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي.

والإسلام يلزم الرجل أن يكون لزوجته وأسرته الركن الشديد ميزانه ومنهجه من تعاليم الإسلام، إن النداءات المزيفة التي تصدر من ساحات المؤتمرات والندوات والإعلام، داعية المرأة إلى ترك تعاليم دينها الإسلامي الحنيف، والزج بها في تيه الجهالة ليس من ورائه إلا تدمير المرأة لتدمر الأسرة والمجتمع المسلم، فيجد أعداء الإسلام مآربَهم، فيخرج للمجتمع أجيال هشة لا تصمد في أي مجال، فتحقق الهزيمة أمام النفس والعدو، فالمسلم يسأل نفسه أين هو من هذا المنهج؟ يضع في الاعتبار مسئولية عن راعيته بدءًا من الزوجة والأبناء وانتهاء بموقعة الذي يعيش فيه.

ويجب أن يوقن الجميع أنها أيام تقضى وعمر ينتهي، فليستثمر هذه الأيام قبل أن يحبس الإنسان بالمرض أو في قبره فيندم على ما فرط في جنب الله، فهاهم الذين كفروا يعتذرون فليس هناك توبة ولا اعتذار إنما هو يوم جزاء على العمل.

ما ترشد إليه الآيات :

١- إن الحياة ابتلاء واختبار ويخطيء من يظن غير ذلك.

٢- للأسف هناك متدينين لم يُشرفوا الإيمان بسلوكهم، ولم يحققوا العدالة التي أمروا بها واكتفوا برفع شعار التوحيد على نحو ما قال شاعر المرجئة:

كن مسلمًا ومن الذنوب لا تخف حاشا المهيمن أن يرى تنكيدا

لو شاء أن يصليك نار جهنم ما كان ألهم قلبك التوحيد!!

والإرجاء سائع منذ زمن طويل بين جماهير المسلمين، يرون أن العمل نافلة، ما دام المرء مؤمنًا بالله فهو ناج مهما فعل!

وقد هدَّ هذا الفكر دولة الإسلام من قرون، ولا تعود للمسلمين حضارتَهم الأولى إلا بالإيمان والعمل.

١- المسئولية الشخصية أساس الحساب في الإسلام فلا يُغني والد ولا زوج ولا ولد.

٢- المراقبة من أرباب البيوت لأنفسهم أولاً ثم لمن تحت ولايته

وتصرفه ثانيًا، أنها ضرورة وليست نافلة، جاء في الخبر أن جماعة عاتبوا داود النبي عليه السلام لكثرة بكائه وشدة خوفه فقال: دعوني أبكى قبل خروج يوم البكاء، قبل تحريق العظام، واشتعال الحشا، وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

* * *

النداء الثاني

الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكلف الناس العصمة فلا يخطئوا أبدًا

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

صلة النص بما قبله :

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله ثقيلة رهيبة، فالنار هناك وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار، قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار، فهاهم الذين كفروا يعتذرون.

إن ربّهم يبين لهم الطريق، ويطمعهم في الرجاء.

والمعنى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾.

أمر الله بالتوبة النصوح.. توبة عن الذنب والمعصية، تبدأ بالندم على ما كان وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها، وتحضه على العمل الصالح بعدها ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾.

وإنه لإغراء مطمع، وتكريم عظيم، أن يضم الله المؤمنين إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين يسعى المؤمنون يوم القيامة، بنورهم ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ وهم في رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب، هو علامة الاستجابة.

فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم

والنور، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.....

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع النبيين والمرسلين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وتوفيقه في

١٥ ذوالقعدة ١٤٢٣ هـ

١٨ يناير ٢٠٠٣ م

* * *